ظهر حديثا

نابليون تأليف إميل لودفيج ترجمة الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى (دار الكاتب المصرى) مجلدان مجموع صفحاتهما ٧٠٠ صفحة ، وترجمة أخرى للأستاذ عادل زعيتر مجلد واحد (دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابى الحلبى) مجموع صفحاته ٥٥٦ صفحة .

فبين الترجمتين إذن فرق عظيم فى عدد الصفحات يبلغ مائة ونصف مائة منها فيجب أن يكون أحدهما قد أضاف هذا المقدار الضخم إلى الكتاب من عند نفسه ، أو أن يكون الآخر قد حذف هذا العدد الضخم من الكتاب ليخفف حجمه ، ويجعل حمله ونقله يسيراً . ولكن هذه قصة أخرى ، يضحك لها من يشاء أن يضحك ، ويحزن لها من يشاء أن يحزن ، ويسخر منها من لا ينظر إلى الأشياء نظرة الجد ، ولا يرى لدقة الترجمة وحسن النقل والأمانة فيه خطرا .

ولست من المعجبين باميل لودفيج وفنه إعجاباً شديدا . ومصدر هذا فى أكبر الظن أنى لم أقرأه فى نصه الألمانى . ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أن بين خياله الألمانى البعيد ، وتفكيره الألمانى الملتوى ، وبين خيالى القاصر وعقلى العربى الذى يواجه الأشياء أكثر مما يدور حولها ، أمداً بعيداً . ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك ، أنى حاولت أول ما حاولت أن أعرف لودفيج من طريق كتابه عن حياة المسيح ، ومن طريق كتابه عن حياة جوت ، فلم أستطع أن أمضى فى الكتابين إلا قليلا . ومصدر هذا آخر الأمر أنى لقيت لودفيج فى القاهرة حين زار مصر متهيئاً لانشاء كتابه عن النيل ، فلم أحمد لقاءه ولم يحمد لقائى . كلفت ان أستقبله فى بعض الأندية ، فطلبت إليه فى صراحة لعلها لم تخل من العنف ألا يتعجل إنشاء كتابه ، وألا يسلك طريق جماعة من الكتاب الذين ينفقون فى مصر أسابيع ثم ينشرون عنها كتاباً حظه من الخطأ يربى على حظه من من الصواب . وكان طبيعياً ألا يقع هذا الكلام من نفس الكاتب الألمانى الممتاز موقعاً حسناً ، وكان طبيعياً أن نفترق إلى غير لقاء .

على أنى بعد ذلك قرأت له كتابين رضيت عنهما كل ، الرضا ، وأعجبت بهما كل الاعجاب ، ووددت لو ترجما إلى اللغة العربية ليقرأهما أكبر عدد ممكن من أبناء الشرق العربى ، وهما كتابه عن بسمارك وكتابه عن نابليون .

ولعل شخصية بسمارك ونابليون أن تكونا هما المؤثرتين فى نفسى . وأن يكون تأثيرهما أشد من تأثير لودفيج . ومع ذلك فقد كانت شخصية جوت خليقة أن تحدث فى نفسى مثل هذا الاثر ، وأن ترضينى عن هذه المجلدات الثلاثة التى تشتمل على الترجمة الفرنسية لكتاب لودفيج عن جوت .

مهما يكن من شىء فقد أخذت أقرأ كتاب نابليون . ولم أكد أمضى فى قراءته شيئاً حتى استأثر بى ، ولم أدعه حتى أتممته على

طوله وعلى مايحفل به من المشقة والجهد فى تصوير الحوادث وعرض التاريخ واستقصاء العلل واستنباط النتائج . والواقع أن الجهد العنيف الذى يبذله القارئ حين يتنقل بين هذه الأجزاء التى سماها لودفيج جزيرةً ، وسيلاً ، ونهراً ، وبحراً ، وصخرة — هذا الجهد يثير فى النفس متاعا عظيما لكثرة ما يمكن من معاشرة هذه الأحداث الكثيرة جداً ، المختلفة جدا ، التى أثرت أبعد الآثار وأعمقها فى تاريخ العالم الحديث . فالأحداث التى صورها إميل لودفيج فى كتابه تصويراً رائعاً دقيقاً تقع كلها فى أقل من ربع قرن ، وكانت خليقة أن تقع فى أكثر من قرن . ويكفى أن تعلم أنها أحداث الثورة الفرنسية ، وأحداث الامبراطورية وما استتبعت من أحداث فى العالم المتحضر كله إذ ذاك . وقد وقعت هذه الأحداث فى وقت قصير وفى أماكن محدودة من الأرض، ولكن آثارها وأصداءها لم تلبث أن انتشرت وتجاوبت فى أقطار الارض كلها، ولم تلبث ان تصحب الزمن وتسايره إلى الآن، وليس من شك فى أنها ستصحب الزمن وتسايره إلى آماد بعيدة فى المستقبل أشد البعد . والذين لا يفرغون لدرس نابليون واستقصاء حياته العجيبة ، ويكتفون بما يعرف عنها المثقف العادى الذى يقنع بما يقرأ فى مختصرات التاريخ وبما يسمع من الأساتذة فى معاهد التعليم ، يحتفظون لأنفسهم من نابليون بصورة ناقصة أشد النقص ؛ فهو البطل العصامى الذى نجم من أسرة متواضعة فى جزيرة كورسيكا، ثم ملأ الدنيا وشغل الناس بانتصاراته فى إيطاليا ، وباقدامه على غزو مصر ، وبتكوين هذه الامبراطورية العظيمة التى أقرت النظام بعد الثورة فى فرنسا ، والتى نشرت أصول الثورة فى أوربا ، والتى ثلت ما ثلت ، وأقامت ما أقامت من العروش، والتى كتبت فى التاريخ بأحرف من نار دامية أو بأحرف من دم ملتهب أسماء هذه المواقع الحربية التى لا يمكن أن تنسى . ولكن كتاب لودفيج يظهرنا فى يسر شاق بعض الشىء ، إن أمكن أن يستقيم هذا التعبير ، على نواحى أخرى من حياة نابليون : يظهرنا على المشرع الذى سلك بفرنسا هذه الطريق الرائعة فى سبيل تجديد التشريع ، وعلى المسالم الذى أبلى فى الحرب بلاء لا يعدله إلا بلاء الاسكندر وقيصر ولكنه أحب السلم كما لم يحببها أحد ، وصور السلم فى رسائله وأحاديثه ومذكراته كما لم يصورها أحد ، ودعا إلى السلم كما لم يدع إليها أحد . والمثالى الذى اشتق حياته هذه الهائلة من قراءة كتاب بلوتارك عن حياة عظماء الرجال صور لنفسه حياته هذه الهائلة تصويرا ، ثم اندفع إلى تحقيقها اندفاعاً فحققها كما أراد . خلق لنفسه نجماً واعتقد أن هذا النجم يهديه فى هذه السبل الملتوية التى دفعته إليها مغامراته ؛ وقد هداه هذا النجم بالفعل؛ لأن هذا النجم لم يكن فى حقيقة الأمر إلا هذه الارادة القوية العنيفة الماضية القاهرة التى لا تعرف ترددا ولا الخيا ولا استسلاما .

ثم يظهرنا كتاب لودفيج على نابليون العاشق الذى يعذبه العشق ، واللاهى الذى يتعجل اللهو بين موقعتين من مواقع الحرب ، والأديب الذى يذوق الأدب وينقده ، والذى يشجعه ويسخر منه ، والعالم بنفسية الشعوب وبنفسية الجيوش ، وبنفسية الأفراد على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وحظوظهم من الثقافة والعلم ، وتصيهم من استقامة الأخلاق واعوجاجها . ثم يظهرنا مع ذلك على ضعفه الانسانى أمام هذا الظهر أو ذلك من مظاهر الغرور ، وعلى قوته الانسانية الهائلة التى كان ينفقها ، ليتم بهذا الضعف ويجد فيه ما يرضى حاجة نفسه الانسانية إلى الاستمتاع بأكاذيب الوهم وخداع الآمال .

يظهرنا لودفيج على هذا كله ، وعلى أكثر

جدا من هذا كله ، فى هذا الكتاب الذى لم يخلص للتاريخ ، ولم يخلص للقصص ، وإنما كان مزاجاً منهما ، يرضى الحاجة إلى المعرفة كما يرضى الحاجة إلى السلو والتخلص بين حين وحين من هموم الحياة الواقعة التى تغشى الناس حين يصبحون وحين يمسون .

ومن هنا لم أتردد فى تشجيع صديق الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى على نشر ترجمته لهذا الكتاب حين عرفت منه أنها قد تمت أو أوشكت أن تتم ؛ ففى إهداء هذا الكتاب إلى قراء العربية إظهار لهم على فصول رائعة من تاريخ العالم الحديث قليل منهم يستطيع أن يظفر عليها من طريق اللغات الأجنبية التى يحسنونها ، وأكثرهم لا يجد إليها سبيلا .

والأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى دقيق إلى أقصى غايات الدقة ، أمين إلى أبعد حدود الأمانة ، يكلف نفسه من ذلك ما يشق عليه وما يشق على الذين يعملون معه أعظم المشقة ، وينتهى به حرصه على الدقة والأمانة إلى الحرج والأحراج فى كثير من الأحيان ، وهو من كتابنا القليلين جدا الذين يمضون أمامهم فى الطريق التى رسموها لأنفسهم أو رسمتها لهم الحياة ، لا يحيدون العوج ولا الذبذبة ولا الالتواء ، ولا يكرهون أن يبذلوا أعظم الجهد ويتحملوا أشد العناء فى سبيل المحافظة على سلوك هذا الصراط المستقيم . وإتقانه للألمانية ، وتعمقه لأسرارها واستقصاؤه لدقائقها أمور معروفة قد استقرت فى نفوس المثقفين جميعاً . وهو قد ترجم آثار جوت ، فأرضى نفسه وأرضى قراءه سواء منهم من استطاع أن يقرأ جوت فى لغته الألمانية ومن استطاع أن يقرأه فى اللغات الأوربية الأخرى . فاقدامه على ترجمة هذا الكتاب اليسير لا غرابة فيه ؛ لأنه تعود دائماً أن يواجه فى الحياة كل عسير .

وهو لم يقدم على ترجمة هذا الكتاب إلا بعد أن استأذن المؤلف فى هذه الترجمة ، وظفر باذنه ، وحاول أن يستعينه على تفسير بعض نصوصه فلم يجد عنده طائلا كما ينبئنا بذلك فى مقدمته . ثم هو لم يكتف بجهده الخاص ، وإنما امتحن ترجمته بعد إتمامها ، فعارض بينها وبين الترجمة الانجليزية والترجمة الفرنسية ، وخرج من هذه المعارضة ظافراً مطمئناً ، بل استكشف فى هاتين الترجمتين ضروباً من النقص عرض علينا نماذج منها فى كثير من التواضع والاستحياء . فمن أيسر حقه على وعلى غيرى من الذين لا يقرءون الألمانية أن نشكر له هذا الجهد الخصب ونهنئه بهذا التوفيق العظيم ، ونتمنى عليه أن يترجم لنا كتاب نودفيج عن بسمارك ، وأن يمضى فى إظهار قراء العربية على روائع الأدب الألمانى العظيم .

أما الترجمة الثانية لكتاب تابليون فلها مزيتان : الأولى أنها تقع فى مجلد واحد فهى أخف حملا وأيسر تناولا ، المزية الثانية أنها رخيصة الثمن بالقياس إلى الترجمة الأولى . وما من شك فى أن الأستاذ عادل زعيتر قد كلف نفسه مشقة عنيفة وبذل فى عمله جهداً عظيما ، وفى أنه خليق من أجل ذلك بأن نحمد له رغبته فى الخير ، ومحاولته للنفع ، وتكلفه للمشقة والجهد فى سبيل ذلك . والأستاذ نفسه ينبئنا بأنه لم يترجم الكتاب عن أصله الألمانى ، وإنما استخلصه لنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الانجليزية والترجمة التركية ، وأقول استخلاصه ولا أقول ترجمه ؛ فالأستاذ ينبئنا بأنه لخص فى كثير من المواطن ولم يترجم . وهو ليس فى حاجة إلى أن ينبئنا بذلك ، فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن ينبئنا به او يدلنا عليه . وقد قلت فى اول هذا الحديث إن بين النصين العربيين فرقاً فى عدد الصفحات يبلغ خمسين ومائة صفحة . وواضح جدا أن

المترجم المصرى لم يزد على كتاب لودفيج خمسين ومائة صفحة من عند نفسه ، فيجب ان يكون المترجم الفلسطينى قد حذف من الكتاب ربعه أو أقل من ربعه قليلا . ذلك إلى عيوب خطيرة أخرى فى الترجمة تضهر من الموازنة بين النصوص ، وقد يعرض لها غيرى من الذين يجدون الوقت لمثل هذا الاستقصاء الذى لا بد منه .

وبعد ، فقد يخيل إلى أن الحياة العقلية فى الشرق قد بلغت من الرقى حدا لا تسمح بالنقل عن التراجم حين يمكن النقل عن الأصل ، ولا تسمح بترجمة الكتب ونشرها والانتفاع منها دون استئذان مؤلفيها ، ولا تسمح بهذا التنافس المالى بين عملين احدهما متقن دقيق والآخر بعيد كل البعد عن الاتقان قد تعجله صاحبه واختطفه اختطافا

طه حسين

كتب أربعة

يقظة العرب تاليف جورج الطونيوس وترجمة على حيدر الركابى (مطبعة الترقى بدمشق) .

العرب تأليف الدكتور فيليب حتى وترجمته مع بعض المعاونين (منشورات دار العلم للملايين)

قضية فلسطين تأليف نجيب صدقة (منشورات دار الكتاب ببيروت) .

هذه هى الأغلال تأليف عبد الله القصيمى (مطبعة مصر — القاهرة) .

كتب أربعة ، تدور كلها حول موضوع واحد . وتصدر عن منزع واحد ، وترمى إلى هدف واحد ، وإن اختلفت مناهج مؤلفيها وأساليبهم فى التفكير ووسائلهم فى البيان وطريقتهم إلى الهدف .

كتب أربعة لمؤلفين أربعة لم يجتمعوا فى دار ولا اظلهم سقف ، ولعلهم لم يلتقوا يوما على ميعاد ولم يتراءوا عينا لعين ، ولكنهم مع ذلك قد اجتمعوا على خاطر مشترك أومض فى قلوبهم جميعا فى لحظة معا ، فتوجهوا بأبصارهم وقلوبهم وعقولهم إلى قبلة تتراءى لهم على مقربة أو على مبعدة ، فمضوا يغذون السير إليها جميعا آملين أن يبلغوها . وسلك كل منهم إلى غايته سبيلا ، فمنهم من اوشك آن يبلغ ، ومنهم من لا يزال فى وسط الطريق أو فى أوله ، ولكنهم على اختلاف سبلهم لا يزالون متجهين بأبصارهم وقلوبهم وعقولهم نحو تلك القبلة التى تتراءى لهم على مقربة أو على مبعدة ، فلا بد أن يبلغوا لان معهم الايمان والصبر !

على أى دلالة تدل هذه الكتب الأربعة التى يخرجها كتابها لقراء العربية فى وقت واحد على غير سابق ميعاد ، ليتحدثوا إليهم فى موضوعاتها الأربعة ، أو فى الموضوع الواحد الذى يدور حوله حديث المؤلفين الأربعة ؟

أليست هى الدلالة على ان الوعى القومى فى بلاد العربية قد بلغ مبلغه من القو

والانتشار ، فعاد نبضا فى كل قلب ، وخاطرا فى كل فكر ، وصورة محسة فى مرأى كل ذى عينين ؟

بلى ! وإنه لحقيقة ماثلة ينبغى آن يحسب حسابها و تقدر مغباتها وعواقبها . . .

أما أولها وهو كتاب « يقظة العرب » فألفه مؤلفه بالانجليزية منذ بضع سنين ليكون تعريفاً وافيا دقيقا بالقضية العربية لكل قارئ بالانجليزية .

ومؤلفه المرحوم جورج أنطونيوس أديب من أبناء العربية كان له فى الجهاد العربى سابقة وفضل ، وقد عاصر بعض مراحل النهضة العربية الحديثة وعرف كثيرا من دقائقها عن كثب ، وأتيحت له فرص لم تتح لغيره للاطلاع على كثير من الوثائق العربية والافرنجية التى تكشف اللثام عن بعض ما استتر من فصول هذه القضية . وقد أراد بكتابه هذا أن يخرج بالقضية العربية من نطاقها المحدود إلى نطاق دولى أوسع ليكسب لها التأييد من أحرار الفكر الذين يقدرون الحق بعيدا عن مؤثرات الهوى . وقد نجح فيما قصد إليه ؛ فكان محاميا طلق اللسان قوى الحجة بارع العرض لقضيته بين أصحاب الرأى من قراء الانجليزية فى انجلترا وأمريكا وغيرها من البلاد .

على أن كتابه ذاك وإن كان القصد الأول منه تعريف الانجليز بقضية العرب والانتصار لهم والاستدلال على حقهم — لم يقتصر نفعه على هذا الوجه من أوجه الدعاوة ، فقد تضمن من المعلومات والأسرار ما لا يعرفه العرب أنفسهم عن القضية التى ينتصرون لها ؛ وفيه من وصف بعض الأحداث التاريخية القريبة أو البعيدة ما كان حقيقاً — لو لم يكشف عنه المؤلف — بأن يظل مجهولا للعرب أنفسهم ، عامة وخاصة ؛ فهو كتاب للعلم وللتاريخ ، وهو بحث سياسى يتسلل بالمنطق الصحيح من المقدمات إلى نتائجها فى أسلوب معتدل ليس فيه سفسطة أهل الجدل ولا اندفاع أهل السياسة ولا حماسة دعاة الوطنية . وهو بكل ذلك ، وبغير ذلك ، كتاب نتمنى أن يقرأه كل عربى ، كما نتمنى أن يقرأه كل قارئ بالانجليزية .

ومن أجل ذلك اتجهت نية معربه إلى تعريبه ، ودعته إليه حكومة الجمهورية السورية ، فبلغه مبلغه فى تجويد الترجمة والأداء ، وأخرجه للناس كتابا عربياً مبيناً

هذا هو كتاب « يقظة العرب » . . .

وأما الكتاب الثانى فهو كتاب « العرب : تاريخ موجز » لمؤلفه الدكتور فيليب حتى أستاذ آداب اللغات السامية ورئيس دائرة العلوم الشرعية بجامعة برنستون .

وليس الدكتور فيليب حتى من النكرات فنتحدث عنه إلى القراء حين نتحدث عن كتابه هذا الذى ظهر حديثاً فى أسلوبه العربى ، بعد أن قرأه قراؤه بالانجليزية منذ سنتين أو ثلاث ، وظهرت منه طبعات أربع ، منها طبعة خاصة بالقوات الأمريكية المحاربة .

وقد وضع الدكتور فيليب حتى قبل هذا الكتاب كتاباً آخر مطولا بالانجليزية عن تاريخ العرب نشرته شركة مكملان ، لندن ، فلقى من الرواج ماحدا بمطبعة جامعة برنستون أن تدعو مؤلفه لوضع هذا الموجز الذى نتحدث عنه اليوم ، فراج رواجه كذلك بالانجليزية ، وترجم فى الأرجنتين إلى الأسبانية ، وشرع فى ترجمته إلى البرتغالية ؛ ثم كانت هذه الترجمة العربية الذى استعان فيها المؤلف بطائفة من رفاقه الذين كانوا يساهمون معه فى منهاج التدريس الخاص بالجيش الأمريكى فى جامعة برنستون . وهم السادة شكرى

خورى ، وفرحات زيادة ، وإبراهيم فريجى ، إلى غيرهم من رفاقه .

والكتاب نهج جديد فى الحديث عن العرب على هامش تاريخهم ، وفيه فاتحة وتسعة عشر فصلا يتحدث فيها المؤلف عن العرب منذ بداوتهم الأولى إلى ما قبل الاسلام ، إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى أيام الخلافة والفتح ، إلى الحروب الصليبية وعصر المماليك ، إلى العصر الحديث ؛ يتخلل ذلك كله مباحث عن الاسلام ، والخلافة ، والحياة الثقافية والاجتماعية ، والعلوم والآداب ، والفنون الجميلة وغيرها مما لابد أن يستدعيه المقام حين يراد التعريف بالعرب فى ماضيهم وحاضرهم وأمجادهم الباقية وما ثرهم المذكورة ومثلهم العليا ؛ ليعرف من لم يكن يعرف أين مكانة العرب بين الأمم التى شادت بناء الحضارة ورفعت منار العلم . ويلى ذلك كله فهرس دقيق للأعلام والبلدان والطوائف التى وردت فى صلب الكتاب مرتب على حروف المعجم .

فهذا كذلك كتاب جاء فى أوانه وحين الحاجة إليه ؛ وإنه لحقيق بحفاوة كل قارئ عربى . . .

ويتحدث الأستاذ نجيب صدقة فى الكتاب الثالث عن « قضية فلسطين » وهو كتاب لا يقل شأنا عن الكتابين الأولين . وقد افتتح بكلمتين قدم بهما إلى القراء ، أولاهما كلمة لعبد الرحمن عزام باشا ، والأخرى للسيد جمال الحسينى رئيس الحزب العربى ونائب رئيس اللجنة العربية العليا .

ويقع الكتاب فى أكثر من ثمانين وثلثمائة صفحة ، وقد قسمه المؤلف أقساما ثلاثة ، عرض فى القسم الأول منها لتاريخ هذه القضية منذ بدأت الثورة العربية الكبرى فى أثناء الحرب العالمية الماضية ، وما كان من وعود الانجليز للهاشميين ، ثم ما كان من وعودهم للصهيونيين ، وما تخلل ذلك من محادثات ومساومات ومعاهدات سرية وأخرى علنية ، ثم ما تلا ذلك من وصف الحالة بعد الانتداب والثورات العربية المتتابعة والمحاولات الانجليزية المختلفة للتغرير بالعرب ، ومحاولات الصهيونيين للسيطرة والغلب .

ثم يتحدث فى القسم الثانى عن الموقف السياسى الحاضر ، ويصف فيه ما كان من تقلب الأحوال بعد صدور الكتاب الأبيض فى سنة ١٩٣٩ وما تلا ذلك من جزر ومد يتتابعان على اختلاف نشاط الهيئات العربية والصهيونية وحركات السياسة الدولية .

ثم أفرد القسم الثالث للوثائق والاحصائيات والمراجع والفهارس والمصورات الجغرافية التى تعين على تتبع مراحل القضية منذ ابتدائها حتى اليوم .

يعرض ذلك كله فى أسلوب هادئ متزن فيه دفء الوطنية ، وسلامة المنطق ، ورقين الايمان .

واليوم يجتمع المؤتمرون فى لندن لبحث مشكلة فلسطين ، وهذا كتاب بالعربية يفصل مراحل هذه المشكلة منذ سولت لبريطانيا مطامعها أنها تستطيع أن تعقد صفقتين على سلعة لا تملكها ، لتقبض ثمنها مرتين إحداهما من المالك الأصيل . . . فهل ألفه مؤلفه فى هذه المناسبة ليكون لونا من ألوان الدفاع أمام المحكمة التى توشك أن تنفض ونصف أعضائها خصوم للنصف الآخر ، أم ألفه ليكون مقدمة كبيرة للجهاد الكبير الذى يوشك أن تزحف جحافله لاستخلاص الحق من مغتصبيه ؟

إنه لذاك ولذلك ؛ فليت كل صهيونى فى إنجلترا وفى أمريكا يتاح له أن يقرأه ليعرف مأى باطل يستمسك . وليت كل عربى فى المشرق والمغرب يقرؤه كذلك ليعرف عن أى حق يدافع !

وهذا الكتاب الرابع «هذه هى الأغلال» الذى يقول مؤلفه فى صدره : « سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل . . . »

ويصفه بأنه « ثورة فى فهم العقل والدين والحياة . . . ودراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية والتاريخية والخلقية التى قضت بانحلال المسلمين — عربهم وعجمهم — وذهابهم فى طوفان الغرب الطاغى . . . ثم كيف ينحسر عنهم هذا الطوفان . . . »

ولعل الكتاب كما وصف مؤلفه ؛ فليس من شك أن فى هذا الكتاب صورة تلهم مؤرخ الحركة الفكرية فى غد أن يقول إن الأمم العربية قد بدأت تبصر طريق العقل ؛ وليس من شك أن فى الكتاب ثورة ودراسة ومحاولات للعلاج !

ولكن ما هى هذه الأغلال التى يطلب المؤلف إلى العرب والمسلمين أن يحطموها لينهضوا وينحسر عنهم ذلك الطوفان ؟ .

ذلك هو السؤال الذى يستغرق الجواب عنه ثلاثين وثلثمائة صفحة هى مجموع صفحات هذا الكتاب ، واثقلها غلا فى أعناق المسلمين والعرب : هو الجهل الاعتقادى أو سوء فهم الدين ، وضعف الاقبال على الأعمال الانتاجية المثمرة ووسائل الاكتساب المادية .

ويتضمن الكتاب فصولا شتى يقدم لها بصفحات يرفعها إلى مقام صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ؛ ثم يتحدث فيما يلى عن الايمان بالانسان ، ثم عن الجهل والفضيلة ، وتعليم المرأة ، والحجاب ، وخطأ الدعوة إلى الزهد فى الدنيا ، وضرورة التزود من علم الحياة ، ومعنى القضاء والقدر والتوكل ، والأسباب والمسببات ، والدعوة إلى الأمل فى المستقبل . فاذا كان الفصل الأخير تحدث عن « المشكلة التى لم تحل ! » وفى هذا الفصل يرد كل المزالق الفكرية إلى « التدين الباطل » . . .

يعالج كل ذلك فى اسلوب مسهب ضافى الذيول كثير الفضول ، إلى قوة إيمان بالفكرة التى يدعو لها وحرص على أن يبلغ موضع الاقناع فى نفس قارئها من كل سبيل ، بالالحاح وبالتكرار وبالأسلوب الخطابى ، وبكل ما يملك أو ما لا يملك من الوسائل !

ولكنه على أى أحواله كتاب يستحق أن يقرأ ؛ لأن فيه نفس صاحبه ، وإيمان هذه النفس ، وقوة ذلك الايمان ؛ ثم لأنه إلى جانب كل ذلك برهان جديد على اليقظة العربية . وأول يقظة الطفل صراخ !

محمد سعيد العريان

مشكلة السلوك السيكوبانى تاليف الدكتور صبرى جرجس (مطبعة المعارف) .

قدم الدكتور صبرى جرجس هذا البحث لنيل درجة الماجستير فى الآداب من جامعة فاروق الأول . والدكتور صبرى جرجس طبيب تخرج فى جامعة فؤاد الأول واختص بالأمراض العقلية . ووجد المؤلف فرصة الوقوف على حالات مرضية فى مستشفى الامراض العقلية بالعباسية فجمع الكثير منها وتتبع أحوالها ، واهتم بالناحية السلوكية لمرضاه قبل دخولهم المستشفى ، واستطاع بهذا تأييد فكرة المنهاج التكاملى الذى يدعو إلى الجمع بين العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية لفهم السلوك الانسانى ، وظهر

البحث مبتكرا فى علم جديد بالنسبة لكل الدراسات المقررة فى معاهد مصر العالية . يعتبر كتاب « مشكلة السلوك السيكوباتى » أساس الأبحاث فى علم النفس الطبى الاجتماعى .

ويجب أن تتفطن إلى نقطة هامة فى دراسة علم النفس . إن كانت بعض العلوم الوضعية التجريبية صالحة فى كل مكان فان علم النفس الحديث يحاول أن يدرس الانسان فى بيئته ، إذ ثبت أن للبيئة اثراً كبيرا فى تكوين الشخصية .

ولذلك يعتبر الفصل الثانى من الكتاب ، وهو الجزء المخصص للمظاهر الاكلينيكية ، جزءاً هاما بالنسبة لعلم النفس فى مصر . لم يكتف المؤلف بعرض حالات مرضية ، ولكنه حاول أن يبحث فى تاريخ الشخص الفردى وتاريخ الأسرة وحاول أن يصل الشخص بكل البيئات التى تؤثر فى السلوك . ويمكن القارئ الاجنبى عن مصر أن يكون فكرة واضحة عن مشاكل المجتمع المصرى . وتوجد حالات تبدو بسيطة فى مظهرها ولكنها خطيرة فى حقيقة الأمر ، ومن بين هذه الحالات الحالة الثالثة والرابعة .

واستطاع المؤلف أن يقول كلمة صريحة عن السيكوباتية بين ذوى المهن العالية . ويلقى هذا الجزء ضوءاً على كثير من الاضطرابات التى تسرى فى المجتمع من جراء مرض خفى يلعب فى نفس شخص استطاع أن يخفى المرض على نفسه ويخفيه على الناس . وتكون النتيجة أن يصل أشخاص إلى مقامات عالية ويوجد تباين كبير بين مقدرة الشخص على العمل والتعب وبين المسئولية الخطيرة التى تحملها . وعلى ضوء هذا البحث العلمى يمكننا أن نفهم خطر التفاوت بين النفوس الصغيرة والمراكز الكبيرة . وهكذا يجد القارئ تحليلا دقيقاً لنفسية طبيب مريض غير شاعر بمرضه ، وهو يملأ منصباً هاماً فى إحدى المستشفيات : « إن ش *** طبيب ، ولكن جانباً كبيرا من جهده ووقته منصرف إلى التقول على زملائه وافتراء الإكاذيب عليهم ، سيان فى ذلك أعداؤه « وأصدقاؤه » . وليس مما يعنيه ، أو يثنيه ، أن تفتضح أكاذيبه ؛ فان الذى يرى ابتسامته العابثة وهو يقابل صد زملائه وإعراضهم حيناً ، وسخريتهم وتحقيرهم أحياناً ، يرى الخلق السيكوباتى فى لهوه غير المتبصر بألفاظ لا يستطيع أن يتمثل مدلولها ، واتجاهه الجامح إلى إرضاء نزعات فجة وتحقيق كسب وهمى . » (ص ١٦٢)

والمهم هو أن نربط بين هذا السلوك الذى يبدو بسيطاً وعاديا وبين سلوك أكثر خطورة ينسب للشخص نفسه ويثير ضجة فى المجتمع وحيرة .

ولعل بعض الناس يعتقد أن الوصف الذى قدمه لنا المؤلف عمل يمكن أى شخص أن يقوم به . ولا تظهر قيمة الاختبار والملاحظة إلا إذا وقف القارئ بامعان على الفصل الثالث وتتبع جولات المؤلف فى تعليل السلوك السيكوباتى واستغلاله لملاحظاته القيمة . وفى هذا الجزء من الكتاب تظهر براعة المؤلف كطبيب باحث يجمع بين المطالعة الغزيرة والملاحظة الدقيقة . وتعتبر صفحات الوراثة أهم ما كتب فى هذا الموضوع ، إذ نجد احدث الأبحاث وأعمق الافكار .

وذكر المؤلف مجلات مختصة كما رجع إلى كتب مطولة . وأهم ما جاء فى هذا الجزء هو مناقشة المؤلف لبعض النظريات الموضحة للوظائف النفسية لبعض الأعضاء مثل صلة الهيبوتلاموس بالانفعال (ص ١٩٤) .

وعرف المؤلف كيف يستغل منهج التكامل فى دراسة الجبلة ، واستطاع ان يتتبع مراحل النمو ويربط بينها وبين آثار الجسم من جهة وآثار المجتمع من جهة أخرى ؛ نراه يدرس المرحلة الرابعة وهى « مرحلة المعارضة

المضادة للنظام التي تستغرق فترة المراهقة . هذه هي مرحلة ثورة الذات على القيود الاجتماعية ، وهي تحفل بصراعات جديدة ناتجة من اضطراب التوازن السيكوبيولوجي الذي يحدثه نشاط الغدد الجنسية ، ثم من القيود التي يقيمها المجتمع دون إشباع الغريزة العارفة . » (ص ٢٠٨)

ويظهر تعب الباحث في محاولته حصر كل آراء العلماء في التعليل والتعريف والتصنيف . وترددت أسماء أعلام علم النفس . وكل رأي مصحوب بشرح واضح ومناقشة علمية دقيقة .

ويصل القارئ بفكرة واضحة عن المرض ليخرج من الكتاب برأي عن الطريق العملي في التوجيه والعلاج . ويعتبر هذا الفصل خلاصة تلقي ضوءا يوضح الصلة بين كل أجزاء الكتاب . ودراسة الأسباب والعلل والتطور تعتبر تمهيداً للتوجيه والعلاج . إذ يكفي أن يعرف السيكوباتي نفسه ليغير سلوكه . فالشخص يأنف من الاعمال الآلية المفروضة عليه فرضاً . فالشخص الذي يجد وصفاً دقيقاً لسلوكه ويعلم انه أصبح معروفا لدى كل الناس فانه يقلع عنه ويبتعد عن كل ما يتعلق به .

ولهذا لعب التمثيل الفرنسي في القرن السابع عشر دوراً هاما في محاربة السيكوباتية . والفضل في ذلك يرجع إلى الأديب موليير Molière الذي استطاع أن يدرك الشذوذ في السلوك ويقدم نماذج مضحكة منه على المسرح .

وزيادة على هذه الافادة بطريق التعريف والتصنيف حاول الدكتور صبري جرجس أن يضع أساساً جديدا للعلاج قائماً على المنهج التكاملي : « الهدف الذي يقصد المنهج التكاملي إليه هو أن يجعل من المهنة الطبية أداة وقائية اجتماعية لا أداة علاجية فردية ، لأنه يجعل مثله الأعلى تدبير الصحة لا خدمة المرض . » (ص ٢٧٩)

وإذ تبين أن السلوك السيكوباتي يرجع إلى التفكك الناشئ عن اضطراب عوامل الشخصية ، فان الغاية الصحيحة في الطب هي أن نحاول إيجاد الظروف الملائمة لتكون هذه العوامل متكاملة ، ولتضمن بذلك تكامل الشخصية وسلامتها .

أبو مدين الشافعي